سورة نوح

مكية، وهي ثمان وعشرون آية [نزلت بعد النحل]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ أصله: بأن أنذر، فحذف الجار وأوصل الفعل: وهي أن الناصبة للفعل، والمعنى: أرسلناه بأن قلنا له أنذر، أي: أرسلناه بالأمر بالإنظار[1]. ويجوز أن تكون مفسرة؛ لأنّ الإرسال فيه معنى القول. وقرأ ابن مسعود «أنذر» بغير «أن» على إرادة القول. و﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ نحو ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ في الوجهين. فإن قلت: كيف قال ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ قلت: قضى الله مثلاً أنّ قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة. فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى، أي: إلى وقت سماه الله وضربه أمدًا تنتهون إليه لا تتجاوزونه، وهو الوقت الأطول تمام الألف ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت، ولم تكن لكم حيلة، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ

---

(١) قال السمين الحلبي: وهذا الذي قدره حسن جدًا، وهو جواب عن سؤال قدمته في هذا الموضوع وهو أن قولهم إن «أن» المصدرية يجوز أن توصل بالأمر مشكل لأنه ينسبك منهما وما بعدها مصدر، وحينئذٍ فتفوت الدلالة على الأمر. ألا ترى أنك إذا قدرت كتبت إليه بأن قم. كتبت إليه القيام تفوت الدلالة على الأمر حال التصريح بالمصدر. فينبغي أن يقدر كما قاله الزمخشري، أي كتبت إليه بأن قلت له: ثم أي كتبت إليه بالأمر بالقيام. انتهى. الدر المصون.

أَنْهَرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ دائبًا من غير فتور مستغرقًا به الأوقات كلها ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ﴾ جعل الدعاء فاعل زيادة الفرار. والمعنى على أنهم ازدادوا عنده فرارًا؛ لأنه سبب الزيادة. ونحوه ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم، فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصًا ليكون أقبح لإعراضهم عنه. سدّوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطوا بها، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم، أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله. وقيل لئلا يعرفهم؛ ويعضده قوله تعالى: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ [هود: ٥]، الإصرار: من أصر الحمار على العنة[1] إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها: استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وأخذتهم العزة من[2] اتباع نوح وطاعته، وذكر المصدر تأكيد ودلالة على فرط استقبالهم وعتوهم. فإن قلت: ذكر أنه دعاهم ليلًا ونهارًا، ثم دعاهم جهارًا، ثم دعاهم في السر والعلن؛ فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف. قلت: قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد، فافتتح بالمناصحة في السر، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان. ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ الدلالة على تباعد الأحوال، لأن الجهار أغلظ من الإسرار؛ والجمع بين الأمرين، أغلظ من إفراد أحدهما[3]. و﴿جِهَارًا﴾ منصوب بدعوتهم، نصب المصدر لأنّ الدعاء أحد / ٢/ ٢٣٧أنوعيه الجهار، فنصب به نصب القرفصاء بقعد، لكونها أحد أنواع القعود. أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم. ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا، بمعنى دعاء جهارًا، أي:

---

(١) قوله: «من أصر الحمار على العانة» هي القطيع من حمر الوحش، والكدم: العض بأدنى الفم. أفاده الصحاح. وفيه: صر الفرس أذنيه ضمها إلى رأسه؛ فإذا لم يوقعوا قالوا: أصر الفرس بالألف اهـ، يعني: إذا لم يجعلوا الفعل متعديًا إلى مفعول. (ع)

(٢) قوله: «وأخذتهم العزة من اتباع نوح» لعله: عن. (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وتكرر كثيرًا له أن «ثم» للاستبعاد، ولا نعلمه لغيره. قلت: هذا القول بعدما سمعت من ألفاظ الزمخشري تحامل منه. انتهى. الدر المصون.

مجاهرًا به. أو مصدرًا في موضع الحال، أي: مجاهرًا. أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي، وقدّم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحبّ إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجلة، ترغيبًا في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين، كما قال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً﴾ [الجن: ١٦]، وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة: حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة. وروي: سبعين فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي اللّه عنه: أنه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت! فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر (١٦٥٨) شبه الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطىء وعن الحسن: أنّ رجلاً شكا إليه الجدب فقال: استغفر الله؛ وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أبوابًا ويسألون أنواعًا، فأمرتهم كلهم بالاستغفار! فتلا له هذه الآية. والسماء: المظلة؛ لأنّ المطر منها ينزل إلى السحاب؛ ويجوز أن يراد السحاب أو المطر، من قوله [من الوافر]:

إِذَا نَـزَلَ الـسَّـمَـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ ..... (١)

١٦٥٨ ـ أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) رقم (٨٣٤٣) وعبد الرزاق (٣/ ٨٧) رقم (٤٩٠٢) والطبري في «تفسيره» (٢٩/ ٥٩) والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٥٧ ـ بتحقيقنا) والطبراني في «الدعاء» والثعلبي في «تفسيره» كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٤/ ٩٣) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٥١) كتاب صلاة الاستسقاء: باب ما يستحب من كثرة الاستغفار في خطبة الاستسقاء، كلهم من طريق الشعبي عن عمر به.

وفي «تخريج الكشاف» (٤/ ٩٣) للزيلعي: قال النووي في الخلاصة: إسناده صحيح لكنه مرسل فإن الشعبي لم يدرك عمر. اهـ.

ينظر جامع التحصيل (ص ٢٠٤).

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والطبراني في الدعاء والطبري وغيرهم من رواية الشعبي: أن عمر بهذا وزاد: ثم قرأ ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ورجاله ثقات إلا أنه منقطع انتهى.

---

(١) إذا نـزل الـسـمـاء بـأرض قـوم رعـيـنـاه وإن كـانـوا غـضـابـا

تطلق السماء على المظلة، وعلى السحاب، وعلى المطر كما هنا؛ لما فيه من السمو والارتفاع، وتطلق على النبات مجازًا؛ لأن المطر سببه؛ فلذلك قال: رعيناه؛ ففي الكلام استخدام، حيث أطلق السماء بمعنى، وأعاد عليها الضمير بمعنى آخر، والغضاب: جمع غضبان والمعنى: أننا =

والمدرار: الكثير الدرور، ومفعال مما يستوى فيه المذكر والمؤنث، كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومتفال ﴿جَنَّتٍ﴾ بساتين ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تأملون له توقيرًا أي تعظيمًا. والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب[1]، و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقر، ولو تأخر لكان صلة للوقار. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال، كأنه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه وهي حال موجبة للإيمان به، لأنه خلقكم أطوارًا، أي تارات: خلقكم أولا ترابًا، ثم خلقكم نطفًا، ثم خلقكم علقًا، ثم خلقكم مضغًا، ثم خلقكم عظامًا ولحمًا، ثم أنشأكم خلقًا آخر. أولا تخافون لله حلمًا وترك معاجلة العقاب فتؤمنوا؟ وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ وعن ابن عباس: لا تخافون لله عاقبة، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب، من «وقر» إذا ثبت واستقرّ. نبههم على النظر في أنفسهم أوّلاً؛ لأنها أقرب منظور فيه منهم، ثم على النظر في العالم وما سوّى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السموات والأرض والشمس والقمر ﴿فِيهِنَّ﴾ في السموات، وهو في السماء الدنيا؛ لأنّ بين السموات ملابسة من حيث إنها طباق[2] فجاز أن يقال: فيهنّ كذا وإن لم يكن في جميعهنّ، كما يقال: في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما: إنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء وظهورهما مما يلي الأرض (١٦٥٩) ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء

١٦٥٩ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤/ ٩٤) غريب: روى ابن مردويه في تفسيره في أول سورة يونس من حديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ قال وجوههما إلى السماء وأقفيتهما إلى الأرض وروي أيضًا من حديث حماد بن سلمة عن عبد الجليل عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو بنحوه انتهى.
قلت: أما أثر ابن عباس:
فأخرجه أيضًا الحاكم (٢/ ٥٠٢) وأبو الشيخ في العظمة (٦١٤) وعبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٩).
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الذهبي على شرط مسلم قلت: وقد =

= شجعان دون غيرنا.
البيت لمعوّد الحكماء (معاوية بن مالك) في لسان العرب: (سما)، وللفرزدق في تاج العروس (سما)، ومقاييس اللغة: ٣/ ٩٨، والمخصص ٧/ ١٩٥، ١٦/ ٣٠، وديوان الأدب: ٤/ ٤٧.

(١) قال محمود: «مالكم لا تكونون على حال يكون فيها تعظيم الله تعالى... إلخ» قال أحمد: وهذا التفسير يبقي الرجاء على بابه الخ.

(٢) قال محمود: «وإنما هو في السماء الدنيا لأن بين السموات وبين السماء الدنيا مناسبة» قال أحمد: ويلاحظ (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان).

السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، والقمر ليس كذلك، إنما هو نور لم يبلغ قوّة ضياء الشمس. ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، والضياء: أقوى من النور. استعير الإنبات للإنشاء، كما يقال: زرعك الله للخير، وكانت هذه الاستعارة أدلّ على الحدوث[١]، لأنهم إذا كانوا نباتًا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات: ومنه قيل للحشوية: النابتة والنوابت، لحدوث مذهبهم في الإسلام من غير أوّلية لهم فيه[٢]. ومنه قولهم: نجم فلان لبعض المارقة. والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتًا. أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم[٣] ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين ثم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة، وأكده بالمصدر كأنه قال يخرجكم حقًا ولا محالة جعلها بساطًا مبسوطة تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة منفجة.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ رؤوسهم المقدمين/ ٢/ ٢٣٧ب أصحاب الأموال والأولاد، وارتسموا ما

= وهما في ذلك فيوسف بن مهران ليس من رجال مسلم.
أما أثر عبد الله بن عمرو:
فأخرجه الطبري (٢٩/ ٩٧) من طريق معمر عن قتادة عن عبد الله بن عمرو بنحوه.
وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦١٥) من طريق همام عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو به. وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
حديث ابن عباس موقوف، أخرجه ابن مردويه في يونس من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عنه بهذا. بلفظ «وأقفيتهما إلى الأرض» وروى الحاكم منه ذكر القمر حسب.
«وحديث ابن عمر رضي الله عنهما مثله» أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: قال عبد الله بن عمر: فذكره موقوفًا. وروى الطبري من طريق هشام الدستوائي عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمر.
(تنبيه): وقع في الأصل ابن عمر مصحف. وإنما هو عمر ورضي الله عنهما. انتهى.

---

(١) قوله: «أدل على الحدوث» لعله: أدل دليل على الحدوث. (ع)

(٢) قوله: «من غير أولية لهم فيه» إن كان مراده بالحشوية أهل السنة، فأوليتهم في مذهبهم: الكتاب والسنة. (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا أعقل معنى هذا الوجه الثاني، قلت: هذا الوجه هو الوجه الذي قدمته، وهو أنه منصوب بأنبتكم على حذف الزوائد، ومعنى قوله: لتضمنه معنى نبتم أي أنه مشتمل عليه، غاية ما فيه أنه حذفت زوائده، والإنبات هنا استعارة بليغة. انتهى. الدر المصون.

رسموا لهم من التمسك بعبادة الأصنام، وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزدهم إلا وجاهة ومنفعة في الدنيا زائدة ﴿خَسَارًا﴾ في الآخرة، وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها، تحقيقًا له وتثبيتًا، وإبطالاً لما سواه. وقرئ: «وولده» بضم الواو وكسرها ﴿وَمَكَرُوا﴾ معطوف على لم يزده، وجمع الضمير وهو راجع إلى من؛ لأنه في معنى الجمع والماكرون: هم الرؤساء. ومكرهم: احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح، وتحريش الناس على أذاه، وصدّهم عن الميل إليه والاستماع منه. وقولهم لهم: لاتذرنّ آلهتكم إلى عبادة رب نوح ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ قرئ بالتخفيف والتثقيل. والكبار: أكبر من الكبير. والكبار: أكبر من الكبار، ونحوه: طوال وطوّال ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فخصوها بعد قولهم ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب، فكان ودّ لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير؛ ولذلك سمت العرب بعبد ودّ وعبد يغوث، وقيل هي أسماء رجال صالحين. وقيل: من أولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم، ففعلوا؛ فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم؛ فعبدوهم. وقيل: كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر. وقرئ «ودًا» بضم الواو. وقرأ الأعمش: ولا يغوثا ويعوقا، بالصرف. وهذه قراءة مشكلة، لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببا منع الصرف: إما التعريف ووزن الفعل، وإما التعريف والعجمة؛ ولعله قصد الازدواج فصرفهما، لمصادفته أخواتهما منصرفات ودا وسواعًا ونسرًا، كما قرئ: «وضحاها» بالإمالة، لوقوعه مع الممالات للازدواج ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ الضمير للرؤساء. ومعناه: وقد أضلوا ﴿كَثِيرًا﴾ قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام ليسوا بأوّل من أضلوهم. أو وقد أضلوا بإضلالهم كثيرًا، يعني أنّ هؤلاء المضلين فيهم كثرة. ويجوز أن يكون للأصنام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾؟ قلت: على قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد ﴿قَالَ﴾ وبعد الواو النائبة عنه: ومعناه قال رب إنهم عصوني، وقال: لا تزد الظالمين إلا ضلالاً، أي: قال هذين القولين وهما في محل النصب، لأنهما مفعولا «قال» كقولك: قال زيد نودي للصلاة وصل في المسجد؛ تحكي قوليه معطوفًا أحدهما على صاحبه. فإن قلت: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته؟ قلت: المراد بالضلال: أن يخذلوا[1]

---

(١) قوله: «يخذلوا ويمنعوا مبني على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر ولا يفعله، وأجيب: بأنه =

ويمنعوا الألطاف[1]، لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم، وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به، بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال: الضياع والهلاك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٨].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

تقديم ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان، فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم، وأكد هذا المعنى بزيادة «ما» وفي قراءة ابن مسعود: من خطيئاتهم ما أغرقوا، بتأخير الصلة، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا، فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم، وإن كانت كبراهنّ. وقد نعيت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعي عليهم كفرهم، ولم يفرق بينه وبينهن في استيجاب العذاب، لئلا يتكل المسلم الخاطىء على إسلامه، ويعلم أنّ معه ما يستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى. وقرئ «خطيئاتهم» بالهمزة. وخطياتهم بقلبها ياء وإدغامها وخطاياهم وخطيئتهم بالتوحيد على إرادة الجنس. ويجوز أن يراد الكفر ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ جعل دخولهم النار في الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم، لاقترابه، ولأنه كائن لا محالة، فكأنه قد كان. أو أريد عذاب القبر. ومن مات في ماء أو في نار أو أكلته السباع والطير: أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحاك: كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب. وتنكير النار إما لتعظيمها، أو لأن الله أعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعًا من النار ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله وأنها غير قادرة على نصرهم، وتهكم بهم، كأنه قال: فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣]. ﴿دَيَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال: ما بالدار/ ٢/ ٢٣٨أ ديار وديور، كقيام وقيوم؛ وهو فيعال من الدور. أو من الدار؛ أصله ديوار، ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت، ولو كان فعالاً لكان دوّارًا. فإن قلت: بم علم أن أولادهم يكفرون، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة؟ قلت: لبث فيهم

= إنما دعا عليهم بذلك بعد أن أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون، حيث قال له: إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن. وهذا على مذهب أهل السنة الذين أجازوا أنه تعالى يفعل الشر كخلق الضلال في القلب؛ لأن فعله لا يخلو عن حكمة. (ع)

(١) قال محمود: «كيف جاز أن يريد الضلال، وأجاب بأن المراد به منع الألطاف» قلت: هذا على قاعدته.

ألف سنة إلا خمسين عامًا، فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه، ويقول: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبي حذرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك؛ وقد أخبره الله عزّ وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن؛ ومعنى ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر. فوصفهم بما يصيرون إليه، كقوله عليه الصلاة والسلام. «من قتل قتيلاً فله سلبه» (١٦٦٠).

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ أبوه لمك بن متوشلخ، وأمه شمخا بنت أنوش: كانا مؤمنين. وقيل هما آدم وحواء. وقرأ الحسين بن علي: ولولديّ، يريد: ساما وحاما ﴿بَيْتِيَ﴾ منزلي. وقيل: مسجدي. وقيل: سفينتي؛ خص أوّلا من يتصل به؛ لأنهم أولى وأحق بدعائه، ثم عم المؤمنين والمؤمنات ﴿تَبَارًا﴾ هلاكًا. فإن قلت: ما فعل صبيانهم حين أغرقوا؟ قلت: غرقوا معهم لا على وجه العقاب[1]، ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت، وكم منهم من يموت بالغرق والحرق، وكأن ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمهات، إذا أبصروا أطفالهم يغرقون. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى» (١٦٦١) وعن الحسن: أنه سئل عن ذلك فقال: علم الله براءتهم فأهلكهم بغير

١٦٦٠ ـ تقدم في سورة البقرة برقم (١٦) وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: متفق عليه وقد تقدم انتهى.

١٦٦١ ـ أخرجه مسلم (٤/ ٢٢١٠ ـ ٢٢١١) كتاب الفتن وأشراط الساعة: باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت حديث (٨/ ٢٨٨٤) من طريق عبد الله بن الزبير عن عائشة وفيه يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله على نياتهم.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم من طريق ابن الزبير عن عائشة رضي الله عنها انتهى.

---

(١) قال محمود: «ما موجب إغراقهم حين أغرقوا، وأجاب بأنهم ما أغرقوا لا على وجه العقاب... إلخ» قال أحمد: هذا السؤال مفصح عما في باطنه من وجوب تعليل أفعال الله تعالى، وعليه يبنى أنه لا يجوز الألم من الله تعالى إلا باستحقاق سابق، أو لأعواض مترقبة، أو لغير ذلك من المصالح، بناء على القاعدة لهم في الصلاح والأصلح والصبيان لا جناية سبقت منهم ولا عوض يترقب فيهم، فبرد السؤال على ذلك. وأما أهل السنة فالله تعالى قد تكفل الجواب عنهم بقوله: (لا يسأل عما يفعل) وهذا الكلام بالنظر إلى خصوص واقعة قوم نوح، وينجر الكلام منها إلى حكم الله علينا في العدو إذا خيف من مقاتلتهم بالآلات على ذراريهم أن ذلك لا يوجب الإكفاف عن مقاتلتهم بالآلات المهلكة لهم والمذرية، ويستدل برمي النبي ﷺ على أهل الطائف بالمجانيق. وقيل له فيهم الذرية، فقال: هم من آبائهم، وأما رميهم بالنار وفيهم الذرية: فمنعه مالك رحمه الله، إلا أن يخاف غائلتهم فيرمون بها إن لم يندفعوا بغيرها، والله تعالى أعلم.

عـاب. وقيل: أعقم الله أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة، فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام» (١٦٦٢).

١٦٦٢ ـ تقدم برقم (٣٤٦) وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة.
وقال ابن حجر: أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أُبي بن كعب انتهى.

obeikandl.com